سلسلة تعنى بترجمة أعمال
المستشرقين الألمان
" ٢ "

الموت والخمر

في

الشعر العربي

تعريب و تقديم
الدكتور
حسن عبد العليم يوسف

١٩٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

(وعلَّمَكَ مَالَمْ تكُن تَعْلَمْ وكَانَ فضْلُ اللَّه عَلَيْكَ عَظِيماً) .

صدق الله العظيم

سورة النساء : آية ١١٣

مقدمـــــــــة

مما لاشك فيه أن هذه الدراسات الأدبية المترجمة تلقـى الضـوء علـى عقيـدة الغـرب ومذهبهـم النقـدى فـى تنـاول الأعمـال الأدبيـة أو الظواهر الفنية علـى مـدار العصـور وبخاصـة القديـم منهـا ويـبرز هـذا الاهتمام فى ناحيتين هامتين :

الأولى إتاحة الفرصة لدارسى الأدب ونقـاده لمعرفـة جديـدة ومنحـى قـد يختلف فى تقويمه ونتائجه ومنهجيته عن دراسات العرب . **أما الثانية** فهـى كشـف الغمـوض الـذى يكتنـف هـذه الدراسـات فـى بعـض الأحيان ، ومحاولة بيان جيدهـا مـن رديئهـا ، لعـل المهتمـين يجـدون فيهـا ضالتهم ، وتزداد فرص الإثراء الفكرى والنواحى الإبداعية فى أكـثر مـن مجال .

ولقد حرصت على أن يكون مجال الترجمة مقصورًا علـى الفـترات القديمة مـن تاريخنـا الأدبـى نظـرًا لأنـه يحتـل مكـان الصـدارة فـى معظـم دراساتى السابقة ، ولاعتقادى الكبير بأن الأدب فى هذه العصـور مـازال يحتاج إلى نظرات تجلى بعض غموضه ، وتبحث فى ميراثه الشـعرى بعـين

فاحصة وذهن متوقد ، على الرغم من الكم الهائل من دراسات النقاد والأدباء والمختصين في هذا الميدان .

وليس الاهتمام بالتراث تمجيد صروحه الصامتة ، والوقوف على الأطلال أو الدمن دون أى هدف مبدع وخلاق ، بل القصد منه بث روح المنافسة المدنية والحضارية ، وجعل ميراث الماضين من الأسلاف ساسًا للتجديد .

ولا أبالغ اذا قلت إن روح التراث الخالد الذى يجلله الإيمان الدينى العميق والطقوس العقائدية الراسخة ، هى التى دفعت بالمستشرقين أن يفتشوا فى حنايا هذا التراث الأدبى الضخم على جملة المعانى السامية فى حياة هؤلاء العرب القدامى .

فبعضهم يكتفى برصد الظاهرة وتحديد دوافعها ، أو تحليل لبعض النصوص التى تدل عليها فحسب . والبعض الآخر ينظر إلى هذا التاريخ الطويل بنوع من الغيرة والحقد ، متحفزاً لرصد ظواهر قد تكون عالقة بماضى أى أمة من الأمم ، أو تشير إلى تصدع جانب من الجوانب الاجتماعية أو السياسية ، فيكلف الناقد نفسه عناء تشويه هذه الاعتبارات

الثقافية دون توافق من الأسس والمفاهيم التى تخضع التجربة للصواب والخطأ ، نتيجة الحماسة الزائده للتراث أو العزوف عنه .

فمن النوع الأول يجئ المستشرق الألمانى " جولد تسيهر " Iganz Goldziher " الذى ساهم بنصيب وافر فى معرفة الغربيين بالأدب العربى وخاصة القديم منه . فأقام دراسته على الشعر الجاهلى وظواهره حتى جاء ت ملاحظاته صورة للناقد الغربى الذى يتكلم بلسان الشرقيين أنفسهم ، فى اطار مقبول ، واجتهاد محمود ، ومعالجة موضوعية ، لمعظم القضايا التى يتناولها . فقدم مقالة بعنوان : (ملاحظات على شعر الرثاء العربى القديم) التى صدرت فى مجلة المستشرقين الألمان ، بألمانيا الغربية سنة ١٩٧٠م . وقد شملت المقالة المطولة عادات النياحة والتأبين عند القدماء وتتبع صورها حتى عصرنا الحديث .كما رصدت الصور المتعددة التى كانت عليها المرثية منذ بدايتها حتى وصلت إلى أعلى درجات النضج الفنى بشكلها المتكامل عند عدد من الشعراء الجاهليين .

ولا يخلو الأمر من تعقيد وغموض فى بعض الأحيان ، إلى جانب

إبـــراز بعض العلاقــات الدينيــة المرتبطـة بدوافــع أخــرى سياســية واجتماعية لاعلاقة لها بالشعر أو الموضوع المثار .

وكانت محاولة الناقد الألمانى " بيتر هـاين Peter Heine " فـى مقالته : (الخمر والموت فى الشـعر العربـى) نقطـة هامـة يجـب الوقـوف حـول مضمونهـا وأهدافهـا . حيـث تبحـث هـذه المقالــة فــى العقيــدة الإسلامية بشكل غير مباشر ، وبمنظور أدبـى يحمـل علـى النواحـى الفنيـة الإبداعية لدى شعراء العربية منذ فترات طويلة . فـإذا كـان الإسـلام قـد جاء وجبّ ماقبله من عادات جاهلية ، فإن القرآن أثّر فى نفـوس الشـعراء المعاصرين – لفترة ظهوره وما بعد ذلك بقليل علـى أقـل تقديـر – تأثـيراً قويًا جعلهم يعزفون عن الموضوعات الشعرية التى حرمت إما بنص صريح من القرآن الكريم ، كتحريم الخمر وما يتبعها من سلوك ، أو بتوجيه من الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كـالبعد عـن الهجـاء الفـاحش والغـزل الصريح .

والدخول فـى مثـل هـذه الموضوعـات الشـائكة ، لابـد وأن يـدرس سالكوها الأدب العربى دراسة وافية مستفيضة ويلم بكـل التيارات التى

أثرت فى هذا العصر المشار اليه .

كما يجب علـى المستشـرقين الشـغوفين بهـذا النـوع مـن الأدب أن يهتموا بكل مايكتب وينقد من هذه الظواهر التـى لاتحسـب علـى العصـر ولا تحمل على العقيدة بل على الأشخاص أنفسهم . وفى أغلـب الأحيـان لايعتد بنتاجهم الشعرى الضئيل ،و ولا يعتبرون ضمـن السـمات الظـاهرة فى العصر ، ويمكن القياس عليهم فى منحى بعينه أو فن بذاتة . كما أنهم لايمثلون عصبة يمكن أن نشير إلى أهميـة وجودهـا فـى بيئـة مـن البيئـات العربية القديمة .

بل هو عبارة عن سلوك مؤقت لبعض الخارجين الذين يظهرون فـى كل عصـر ، وفـى أى مكـان ، ولـدى كـل أمـة ، دون أن يكـون هـذا الخـروج عـن عمـد ومقصـود لذاتـه . وإنمـا هـو مـن قبيـل لفـت نظـر المعـاصرين الآخريـن بوجـود أنمـاط شـبه متمـيزة - إذا عـد الخروج تميزًا - وسط الإنتـاج الهـائل مـن الشـعر الدينـى الـذى يعـبر عـن مرحلة تعد من أهم مراحل الشعر العربى الانتقالية .

وسوف أترك للقارئ مهمة الاطلاع على مايمكن أن تتضمنه السطور المترجمة . وحسبى أنى حاولت واجتهدت.

و الله من وراء القصد ؟

(١)

ملاحظات على شعر الرثاء العربى القديم

" ايجانز جولد تسهير "

Iganz Goldziher

نشر مجلة المستشرقين الألمان ـ ألمانيا الغربية

فيسبادن ، سنة ١٩٧٠م .

تكونت أشعار الهجـاء من القافيـة القديمة ، وكـان ذلـك هـو نفـس الشيء بالنسبة للمقالات النمطية التى تكونت منها النياحة على الموتى عنـد العرب القدماء .

جاءت النياحة للتعبير عن البراعم الأوليـة لفـن المرثيـة التـى أخـذت مكانها فى نظام الأدب الشعرى المعروف عند العرب بالمرثية .

إن النياحة القديمة لاتحمل بعد صفات الفاعلية الشعرية ، إنها ليسـت محدثة بواسطة شاعر ولكنها فى الواقع تدريب متعلق بالواجب الدينى الذى يكون فى محيط أقرباء الميت . والميت له حق لهـذا الواجب الـذى يقـوم بـه الأحياء ، كما أن هذا أيضًـا يسـرى علـى كـل مراسـم الدفـن الأخـرى . وترك هذه العـادات يعـادل تمامًا - كمـا هـو الحـال فـى الأخـذ بالثـأر - الإهمال فى الواجب الدينـى والـذى هـو فـى حـد ذاتـه يديـن بـه الإنسـان للميت . وكان يعتبر ترك الميت يغـادر الديـار بـدون نياحـة عليـه إهانـة لـه ونزع الشرف منه .

ونضـرب مثـلا لرجلـين صديقـين همـا : " دريـد بـن الصمـة " و " معاوية بن عمرو بن الشريد " اللذين تعاهدا على أن الحى منهما يجـب

أن يؤبن الآخر وينوح عليه ، وهذا العهد وضع فى نفس الدرجة مع واجب الأخذ بالثأر الذى قد أخذ به العهد أيضاً ومن خلال قيام هذا الحلف انتقلت بعد ذلك - وخاصة فى هذه الحالة - الصفات الخاصة بصلة الدم إلى غير الأقرباء من القبائل الأخرى .

وقديمًا أخذت النياحة صورًا متقدمة أو متطورة من الشعر ، ويوضع فى الاعتبار تأثير الشعراء بالنسبة للنياحات القديمة .

ومن المعلقات وقصائد الرجز القصيرة والأبيات المقطعة من الرجز الطويل تطورت بالتدريج المرثية فى صورها المتعددة وأشكالها الفنية فى القصيدة الشعرية . ويسرى ذلك أيضًا على العناصر الموسيقية فى رثاء الميت، فإن الأغانى الشعبية البسيطة التى قامت بها النائحات قد تم تطويرها إلى أغانٍ تأبينية بواسطة فنانين فى الغناء فكانوا ينشدونها فى المآتم مختفين عن العامة بوساطة ستار .

ومن خلال وجود هذه الصيغ العالية التطور لم يتمكن من القضاء التام على ممارسة القصائد - النياحات - غير موزونة . وقد خدم هذا - و لو ظاهريًا - التعبير التلقائى للشعور الطاغى ، ولكن بقيت

هناك حاجة إلى أشعار الرثاء (المراثى) التـى تكـون فـى الواقـع ناتجـة عـن إعمال العقل والجهد الفنى ، ولذلك لايمكننا أن نقوم بمفاضلـة حقيقيـة فـى الدرجة تحتلها المراثى البدائية بدرجة مشابهة.

ونستطيع أن نكون صورة عن الشخصية (النسق) المتخيل فـى شـعر النياحة عند العـرب وذلـك مـن خـلال الشـعر المتوافـر لدينـا مـن المعلقـات أو القصائد القديمة .

من هذه التجارب على سـبيل المثـال : تلـك القصيـدة التـى قالتهـا أم الشاعر " تأبط شراً " فى امرأة من بنى القين مات ابن لها :

وابناه وابنَ الليّل- ليس بِزُمَّيْل - شروب للقيـــــــــــل -

رقود بالليل- وواد ذى هول- أحزت بالليل-يضرب بالذيل-

برجل كالثول[1] .

ومما يكـون مدعـاة للعجـب أن تذكـر الصفـات السـلبية للمرثـى بـدلاً مـن الصفات الإيجابية التى يجب على أهل المرثى أن يذكروه بها .

---

[1] انظر : شرح أشعار الهذليين ، السكرى . جـ ٢ / ٨٤٦ .

وصورة أخرى من المناحات القديمة فى العصر الجاهلى " لزهير بن حذيمة" فى مصرع ابنه " شاس " :

وما شاس، والباس وماالباس ، لولا مقتل شاس ، لم يكن بيننا باس[1] . وقد نقل هذا النمط فى أشعار الرثاء (المناحات) القديمة إلى المراثى التى وردت بعد ذلك وأثرت فيها وبخاصة استعمال حرف (ما) المتكرر فى أشعار القدماء .

وكذلك فى مرثية " العباس بن عبد المطلب" فى ابنه " قثامة " :

بأبـي ياقُثـم ، ياشَبيَـه ذى الكَـرَمْ ، وذى الأَنْـفِ الأَشَـمْ[2].

وقد ناحت " فاطمة " بعد وفاة الرسول على نفس النمط القديم بقولها :

يـا أبتـاهْ ، مِن رَبِّـه مـا أدنـاهْ
يـا أبتَاهْ ، أجَـابَ رَبًّـا دَعَـاهْ
يا أبتـاهْ ، (مِنْ) [3] جَنَّة الفردوس مأواهْ

---

[1] راجع : أشعار الهذليين ، طبعة فلو هوزن ، ص ٤٧ قصيدة ١٦
وانظر : الجمهرة ص ١٣٣ ، ص ٣٧٤ : (أخى ما أخى) .

[2] انظر : المعجم الصغير للطبرانى ، طبعة دهلى سنة ١٣١٢ ، ص ٢٢٤ .

[3] ساقطة من رواية الطبرانى .

يـا أبتــــاه ، الى جبريـــــل ننعــــــاه[1]

وقصيدة " ابن هشام " المطولة فى رثاء أم سعد بن معاذ . وقد ظهر فيها الشكل الأصلى للمراثى:

وَيـــلُ أم سعـــدٍ سَعْـــدًا ، بَراعَة ونَجْــــدًا

وَيـــلُ أم سعْـــد سعْـــدًا ، صرامـــة وجَـــدًّا[2]

وتوضح لنا النياحة الأخيرة الانتقال من الشعر غير المـوزون إلى نمط المراثى الموزونة الثابتة . وهذه الظاهرة تقابلنا فى أشعار الرثاء ، كقـول " فخيتـة " زوجة معاوية فى حياته :

ألا أبكيـــــــه ألا أبْكيـــــــــه

ألا كــــلّ الفتـــــى فِيـــه[3]

فبحـر الهـزج بالإضافـة الى بحـر الرجـز ، همـا أقـدم تنظيـم لشـعر الرثاء ، لتكونه فيهما بطريقة لا إرادية . فبحر الهزج من الصيغ المحبوبـة فـى

---

[1] انظر الطبرانى ص ٢٤ (عند الطبرانى أنعاه) .

[2] أسد الغابة ، ص ٢٩٨ ، الجزء الثانى .

[3] الكامل : ص ٧٨٤ .

الشعرالشعبى القديم ، ونحن نعرف بعض الأغانى الخاصة بالعروس فى هـذا الشأن . من مثل ذلك :

أَتيناكُـم أتيناكُـم ∴ فحيّونـا نُحَيّيكـم

لولا الذهـب الأَحْمَـــر ماحَلّت بِواديكـم

لاولا الحنطة السَّمْرا ∴ ماسَمِنّ عذاريكم

و أخرى غيرها :

تُغَنِّيـــنَ تُغَنِّيـــنَ ∴ فللّهـــو خُلِقْتُـــن

كَـــذَبْتُنَّ كذبتُنّ ∴ فأَخْزَى اللّه شيطانٌ ∴ رَمى هذاإليكُنّ[1]

ومثل هـذا كثير فـى كتب الأدب العربيـة . وواضـح أن الأوزان القصـيرة كانت مجالاً أمام الانفعـالات الشـديدة والحزن الحـاد الـذى يعقـب المأسـاة مباشرة ، ولهذا كنا نسمع الشاعر يقول راثياً ومهـددًا بالثـأر بنفـس الـوزن السريع .كما حصل لامرئ القيس عندما قتل أبوه وفشـــل فى ادراك ثأره

---

(1) أسد الغابة : ص ٦٢٣ ، الجزء الخامس .

وراجع المعجم الصغير للطبرانى : ص ٦٩ ، (من بحر المتقارب) :

وأهدَى لنا أكْبُشـاً ∴ تَبحبحَ فى المِرْبَـــد

وزوجُكِ فى النادى ∴ ويَعْلَم ما فى غـــدِ

فقال مرتجزًا :

تـــاللّه لايَذْهَب شيْخـــى بَاطِـــلاَ

حتـى أبيــر مالكـــاً وكَاهـــلِاَ

القَاتلـــين المـــلك الحـــَلا حِلاَ

خيـــــر معـــــدّحسباً و نَائِــلاَ

يالَهْف نَفْسى اذْ خَـــطئن كَاهِــلاَ

نحـــنُ حَلَبْنـَا القـرح القَــوافِلاَ

يحملنـــا و الأســـل النّـــواهِــلاَ

مُسْتَفــرمات بالحمـــى حوافـــِلاَ

تستثفـــر الأواخِـــرَ الأوائِـــلا [1]

إن قصيـدة الرثـاء قـد حـافظت فـى تكونهـا التطورى على بعــض الصفات الشكلية الخاصة بالبنية الأولى التى أتت منها القصيـدة فيمـا بعـد . إن أكثر ما تلاحظه العين وتقع عليه فـى القصيـدة كلمـة (لاتبعـد) التـى

---

[1] ديوان امرىء القيس ص ١٣٤ (تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم ـ القاهرة)
وراجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ص ٥٢ .

تقوم أساسًا على المعاناة فى رحيل المرثى . كقول أخت " قبيصة بن ضرار" لأخيها :

لاتبعـدنّ وكلّ شـــىء ذَاهِـــب

زين المَجَالِـــس والندىّ قبيصـــا[1]

ومثله قول "الفطمش الضبى" فى رثاء شخص عزيز عليه :

آأبىّ لاتبـــعد ولَيْسَ بخَالــــــدٍ

حـىّ ومنْ تُصِـيب المنون بعيـــد[2]

ومن الناحية الشكلية أيضًا تكرار المقاطع فى شطرى البيت أو فـى أبيات القصيدة نفسها من ذلك بكاء " أم سليمة " للوليد بن الوليد المخزومى فى قولها :

---

(1) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى قسم ٢ / ١٠٥٣ .

(2) معجم الشعراء للمرزبانى ، ص ١٧٥

وراجع : حماسة أبى تمام بشرح المرزوقى حـ ٢ قسم ٣ / ١٠٤١

وانظر : الوحشيات لأبى تمام ص ١٣٠ (فى رثاء تأبط شرًا لخاله الشنفرى)

وراجع : أسد الغابة ٥٥٦ (لا يُبْعد الله منّا قُرْبَ ....)

أبْكِي الوَلِيد بن الوَلِيــد بن المُغِــيرة

أبْكى الوَلِيد بن الوَلِيد أخَــا العشيرة[1]

وتكرر اسم "خالد" في مرثية "دريد بن الصّمة" سبع مرات في أبيات ثلاثة:

ياخَالِـداً خَالِـدَ الأيْسَـار والنّادى

وخالـد الـريح أُذْهِبْتَ بصُرّادِ

وخَالِـد القَوْل والفِعل المعِيش بــهِ

وخَالِـد الحَـرْب اذْ غَضَتْ بأورادِ

وخَالِـد الرّكب إذْ حدَّ السّفار بهــم

وخَــالِدَ الحَـيّ لَمَّا ضـُنَّ بالزّادِ[2]

وواضح أن هذا التكرار مقصود منه اللهفة على من فقدوا وطلب الصبر والتماسك في صورة تكرار للمقاطع أو الأسماء أو الحروف . على نحو

---

[1] للمعجم الصغير للطبراني ، ص ٢٠٦

وانظر : أسد الغابة ، ص ٩٣ الجزء الخامس .

[2] راجع الأصمعيات ص ١٠٥

وانظر ديوان المعاني للعسكري جـ ١ / ٥٥

وراجع آمالي اليزيدي ص٣٤

مانرى في بعض الأمثلة :

مَنْ رأى مِثْلَ مَعْـــدانَ بـنِ يَحْـــيَ
إذَا ما النَّسْع طَـــالَ على المَطِيَّـــهْ
ومَنْ رأى مِثْل معَـــدانَ بـــنِ يَحْـــيَ
إذَا هَبَّتْ شآمِيَـــة عَرِيَّـــــهْ[1]

وكذلك قول أحدهم :

أبـــدر الّديـــن عـــزّ عَلَيْكَ صَبْـــرِى
أبـــدر الّديـــن كَيْف هَجَرْتَ أَهْـلاَ
أبـــدر الديـــن هل تُفْـــدَى بمـــالٍ
أبـدر الديـــن كُنْت أخـــاً وَفِيــاَ[2]

وهذا كثير من كلام العرب وأشعارهم ، قال مهلهل بن ربيعة يرثي أخاه كليباً :

---

[1] انظر : الجمهرة : ص ١٤٣ / جـ ٥ ٠

[2] راجع : غرر الفوائد ودرر القلائد ،ص٨٤

وانظر : ديوان صفى الدين الحلى ، طبعة دمشق ١٢٩٧ ، ص ٢٦٢ ومابعدها ٠

علـــــى أن لَيْسَ عَدْلاً من كُلَيْـــب

إذا طُـــرِدَ اليتيمُ من الجـــــــــذُورِ

علـــــى أن ليس عَدْلاً من كُلَيْـــب

إذا مـــا ضِيمَ جيـــــرانُ المجـــــيرِ

علـــــى أن ليس عَدْلاً من كُلَيْـــب

إذا رجَـــــفَ العِضاهُ من الدَّبـــورِ

علـــــى أن ليس عَدْلاً من كُلَيْـــب

إذَا خرَجَـــتْ مُخَبَّأةُ الخُـــــدورِ

علـــــى أن ليس عَدْلاً من كُلَيْـــب

إذا ما أُعْلِنَـــتْ نَجْـــوَى الأمـــورِ

علـــــى أن ليس عَدْلاً من كُلَيْـــب

إذا ما خِيـــف المَخُوفُ من الثُّغـــورِ

علـــــى أن ليس عَدْلاً من كُلَيْـــب

غَـــــداةَ تَلاتِلِ الأمْـــرِ الكَبِيـــرِ

علــــى أن ليس عَدْلاً من كُلَيْـــــب

إذا ماخـــــــار جارُ المُسْتَجيـــــــرِ[1]

وقالت ليلى الأخيلية ترثى توبة بن الحُمَيِّر:

لنِعْمَ الفَتَـى يا توْبَ كُنْتَ إذا الْتَقَـــتْ

صــــــدورُ العَوالى واسْتَشَال الأسافِـلُ

ونعم الفتـى يا توب كنتَ و لم تكـــن

لتُسْبَـــــقَ يومًا كنتَ فيه تُجـــــاوِلُ

ونعـــم الفتى ياتوب كنت لخائــــفٍ

أتـــــاكَ لِكَى يُحْمَى ونِعْمَ المُجـــامِلُ

ونعـــم الفتى يا توب جارًا وصاحبًـا

ونعـــــم الفتى ياتوب حين تُنَاضِلُ

ونعـــم الفتى ياتوب كنت مقدَّمًـــــا

علــــــى الخيلِ تمضيها ونعم المُنــــازلُ

لعمـــــــرى لأنت المرء أبكى لفقـــدِهِ

بجـــــدٍّ ولو لامَتْ عليـــــه العواذِلُ

---

[1] آمالى المرتضى ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط عيسى البابى الحلبى جـ ١ / ١٢٤

لعمـــــــــرى لأنت المرء أبكى لفقــده

و لَـــوْ لاَم فيه ناقِـــصُ الرَّأى جَاهِـلُ

لعمـــــــــرى لأنت المرء أَبْكِى لفقـده

إذا كَثُرتْ بالْمُلحِمِيــن التَّلاتِـــــــــلُ

أبـــــــى لك ذمَّ النَّاس ياتوب كُلَّما

ذُكِرتَ أمـــــورٌ مُحْكَماتٌ كَوامـــلُ

أبـــــــى لك ذمَّ النَّاس ياتوب كلَّمَا

ذُكِرْتَ سَماحٌ حين تَأْوِى الأرامــــــلُ

فلا يُبْعِدَنْكَ الله ياتــوب إنَّمــــــا

لقيتَ حِمَــامَ المــوتِ والموتُ عَاجِـــلُ

ولا يَبْعِدِنْـــــــكَ الله ياتوب إنَّمـــــا

كذاك االَمَنَايـــــا عَاجِلاتٌ وآجِـــلُ

ولا يبعدنك الله ياتوب والْتَقَـــــــتْ

عَلَيْكَ الغَوادى المُدْجِنـــــاتُ الهواطِلُ[1]

---

(1) ديوان ليلى الأخيلية بتحقيق / خليل ابراهيم العطية وخليل العطية . دار الجمهورية بغداد ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م ، ص ٩٣ وما بعدها . وانظر ديوان الخنساء ، طبعة بيروت ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر سنة ١٩٦٣ م / ١٣٨٣ ص ٤٨ و ما بعدها .

فخرجت فى هذه الأبيات من تكرار لاختلاف المعانى التى عددتها ، على نحو ماذكرناه .

وقال الحارث بن عبّاد :

قرّبا مربِطَ النّعامة منّى ∴ لَقِحَتْ حَرْبُ وائلٍ عن حِيالِ

ثم كرر قوله " قربا مربط النعامةَ منّى" فى أبيات كثيرة من القصيدة للمعنى الذى ذكرناه .

وقالت ابنة عم " النعمان بن بشير" ترثى زوجها :

وحدّثنى أصْحَابه أنّ مالكاً
أقامَ ونادَى صَحْبُهُ بِرَحيلِ

وحَدّثنى أصْحابه أنّ مَالِكا
ضَروبٌ بِنَصْلِ السَّيف غَيْرُ نَكولِ

وحدّثنى أصحَابه أنّ مَالِكًا
جوادٌ بما فى الّرحْلِ غَيْرُ بخيلِ

وحدّثنى أصْحَابه أنّ مَالِكًا
خفيفٌ على الحُدّاث غَيْرُ ثقيلِ

وَحَدّثنى أصْحَابــه أنّ مَالِكــــــــا

ضروم كماضى الشّفْرَتيْنِ صَقيــلِ[1]

وهذا المعنى أكثر من أن نحصيه.

فـى العصـور الماضيـة ، كمـا هـو الحـال فـى هـذه الأيـام ، كـان يتبع الدفن فترة حداد يقوم خلالها المعزون المتجمعون بالنياحة على الميت. وهناك بعض العادات التى كانت موجودة فى بعض الأماكن من الأراضى العربية ، على سبيل المثال :

فـى مكـــــة : كانت هذه الفترة تسمى " عُدَّه " .

وفى سوريا وفلسطين كانت تسمى " معادا " Meâda

وكانت أغنيــــة النيـــــاح تسمى : Maid

وفى مصر يوجد وصف حىّ لهذا التجمع ويسمى حدادا . وكـانت فترة الحداد تقام لمدة أربعين يومًا بخلاف الأيـام الثلاثـة التـى أعقبـت الوفـاة

---

[1] انظر : غرور الفوائد ودرر القلائد : ص ٨٤ ومابعدها

و راجع : للمستجاد من فعلات الأجود للتنوخى ص ١٣٣ ومابعدها .

و انظر : شرح أشعار الهذليين ، ج ١ /١١ وما بعدها .

(والدهر لايبقى على حدثانه.........)

و راجع : شرح ديوان الحماسة للمرزوقى قسم ٢ / ٩٠٩ ومابعدها .

و انظر : ذم الهوى لابن الجوزى ص ٥٢٩ .

وكانت تقام كل يوم خميس . ومن الناحية التاريخية فقد ذكر فى سيرة عنترة أن هذا البطل الذى جاء فى وقت ماقبل الإسلام ، بقى بعد وفاة والده فى " بيت الأحزان " وأقام طقوس الحزن واستقبل المعزين وأمر ببناء قبرين فى بيت وسماه بيت الأحزان وكتب على القبرين اسمى ولديه .
كما أنه من المعروف بأن لفظ " بيت الأحزان " يطلق أيضاً على تلك المدينة التى سكن بها " يعقوب " والتى قام فيها بالحزن على فقدان "يوسف " .

أما بالنسبة لفترة النياحة فإنه لا يفترض أن يكون لها مدة معينة ، ففى الأزمنة القديمة - منذ لبيد بن ربيعة مثلاً - كانت الفترة التى يقام فيها الحداد تمتد إلى عام كامل ، والذى من خلاله كانت النساء يقمن بالندب على الميت وقد تطورت هذه العادة بأن تقوم نساء الجيران والصديقات بمساعدة النائحات فى عملية الندب هذه .

وقد أطلق اصطلاح" إسعاد " على تلك المرأة التى كانت تساعد النائحات ، وقد حرَّم الرسول هذه العادة ونهى النساء عن القيام

بها .. كما جاء عنه (لا إسعاد ولا عُقْرَ فى الإسلام)[1] .

كما نهى الرسول أيضا عن المساعدة فى عملية النياحة. التى هى فى غاية الخطيئة . من ذلك على سبيل المثال : قالت امرأة من النسوة ماهذا المعروف الذى لاينبغى لنا أن نعصيك فيه ، قال : لاتَنُحْـنَ . قلت : يابنى الله إن بنى فلان قد أسعدونى على عمّى ولابد لى من قضائهنّ . فأبى علىّ ، فلم أنح بعد فى قضائهن ولا فى غيره[2] .

ولكننا سوف نلاحظ بعد ذلك أن مثل هذا الكلام يعكس وجهة نظر هؤلاء الممثلين الأولين للإسلام ، وأنه لم يكن هناك نقص أو تقصير فى المحاولات لكى يتم تثبيت لهذه العادة القديمة فى إطار الدعوة الإسلامية وعلى الرغم من ذلك بقيت عادات جاهلية فى الفترة الأولى للإسلام برغم النهى عنها والحث على تركها ، كالاحتفالات بذكرى الموتى بعد وفاتهم وبعد دفنهم فى تجمع حزين ، حيث تقدم فيها الأطعمه .

وكذلك إقامة المآتم للنياحة على الميت وتعداد مآثره . كالذى فعل بعد وفاة " الحسن" فقد أقامت نساء بنى هاشم تجمعات للنياحة عليه لمدة

---

[1] أنظر : أسد الغابة ، ص٥٩٠ / الجزء الخامس .
وراجع النّسائى .

[2] انظر : أسد الغابة : ٢٨٤ و ما بعدها / الجزء الرابع .

شهر كامل . وفى بداية العصر العباسى أقامت أم (عبد المجيد) مع أخواته وحواريه مأتمًا عليه وقامت تصيح (واى ويه ، واى ويه) فيقال إنها أول من فعل ذلك وقاله فى الإسلام .

وقد ذكر فى كتاب " السيرة النبوية " أن " أم سلمة " أول من فعلت ذلك فى الإسلام ، قالت : يارسول الله : إن نساء بنى مخزوم قد أقمن مأتمهن على الوليد بن الوليد بن المغيرة ، فأذن لها ، فقالت وهى تبكيه..... الخ. [1] وهذا يدل على أن هذه العادة أخذت جذورها منذ العصر الجاهلى .

ومن وجهة النظر هذه ، وبرغم اعتراضات دينية فقد طبقت واستخدمت هذه العادات فى العصور الإسلامية الأولى ، وبالتالى قبل مجىء العصر العباسى .

وبهذا فإن الصحابة الأوائل الذين عارضوها و لم ينفذوا ماأمر به الله ورسوله . فقد خالفوا بذلك وصية الرسول.

أما العادات التى كان يتبعها الشعراء فى مراثيهم ، فإن تلك المراثى

---

[1] راجع السيرة النبوية لابن هشام ص ٧٩٦ ، الجزء ١٦ .
وانظر : المعجم الصغير للطبرانى ، ص ٢٠٦ .

كان يخطط لها من قبل . أى أن الشاعر يقـوم بـإعداد مرثيـة يتنـاول فيهـا كل مايتعلق بالمرثى أيام حياته من مآثر وصفات .

أما الحال في وقت الدفن والنياحة على الميت لحظـة حلولـه فـى القـبر فلم تصل الينا أيـة معلومـات خاصـة عـن تلـك العـادات فـى المـآتم بالنسـبة للعصور القديمة .

وأما عملية الندب نفسها فإن النساء اللائى كن يقمـن بـالندب علـى أزواجهن وهن فى حالة الوقوف ، فهذا دليـل علـى أن النيـة عندهـن بـأن تترمل المرأة وأنها لن تتزوج بعده أبدًا . وفيما عدا ذلك فإن النياحـة الملقـاة فى حالة الوقوف إحدى علامات الحزن العميق .

وفى أوقات متأخرة جـداً عـن ذلـك تقابلنـا دائمـاً وبصـورة متكـررة معلومات عن عادة نزع غطاء الرأس عند القيـام بمثـل هـذه المناحـات ، ولا يمكن الجزم هنا بـأن هـذه العـادة عربيـة خالصـة بـالرغم مـن وجودهـا فـى عادات الشعوب الإسلامية . مثال ذلك : ما ذكر في القرن الرابع الهجرى أن المسلمين الديالمة كانوا ينزعون أغطية الرأس عند المآتم سواء كانوا أقرباء الميت أو المعزين ، وإذا كان لهم مأتم كشفوا رؤوسهم واجتمعوا وقد التـف المعّزى والمعزَّى فى الأكسية وأداروها على رؤسهم ولحاهم .وحدث ذلـك

أيضاً فى نفس الوقت عند موت أحد الرجال المشهورين (أبو المعانى الجوينى) فى بغداد . عند إعلان نبأ وفاته . فقد حكى الإمام الغزالى بأنه فى الوقت الواقع ما بين موته ودفنه خُلعت أغطية الرؤس (المناديل) ، ولم يتجرأ أحد من كبار القوم المعروفين أن يغطى رأسه[١] .

ويبدو أن هذه العادة كانت مألوفة لديهم . وقد حصلنا على معلومات من مصر فى عام (٦٨٧ هـ) بعد موت الملك الصالح أن ابن السلطان الملك المنصور " قلاوون " حسر رأسه ووضع عمامته على الأرض حيث كان هو نفسه يبكى وحتى الأمراء وبقية المعزيين كانوا قد حضروا لتقديم العزاء رموا عماماتهم على الأرض[٢] .

إن اشتراك أعضاء العائلة المصابة من النساء فى الندب قد فتح المجال للمشاركة فى عملية النياحة ، كوصف " ذو الرمة " الشاعر ومقارنته لقافلة الجمال فى أثناء سيرها من رفع وخفض سيقانها كحركة النساء النادبات[٣] .

---

[١] راجع : تذكرة الحفاظ للذهبى طبعة حيدر آباد ، جـ ٨ ص ٥٤ وما بعدها .

[٢] انظر : تاريخ مصر لابن اياس ، طبعة القاهرة جـ ١ ص ١١٧ وما بعدها .

[٣] راجع أراجيز العرب : محمد توفيق البكرى (طبعة القاهرة ١٣١٣) جـ ٣ ص ٩ .

كما كانت تتبع عادة قفل أبواب القصر أو باب المدينة عند موت أحد الأمراء ، وخاصة في الأيام الأولى للحداد ، وذلك تعبيراً عن أقصى درجات الحزن[1] .

وفي العادة عند موت أحد المشهورين من العامة يجلس الطرف الأكثر قرباً المتحمل للمصاب خلال الأيام الأولى للحزن لكي يستقبل العزاء . وتجرى بعد ذلك مراسم الرثاء بأن يقوم الشعراء بإعداد مراثيهم وحفظها ثم إلقائها عند استقبال المعزين . وحتى في الأيام التالية التي تعقب الدفن حيث تتم الزيارة العادية للقبور و يسمح فيها للنائحات بالاشتراك كما يستمر أيضاً في إلقاء المراثي[2] .

يرى النقاد العرب أنه يوجد فرق كبير بين المرثية وجميع صور الشعر الأخرى . فبينما تبين القصيدة في جميع محتوياتها صفاتها الثابت أو

---

[1] تذكرة الحفاظ للذهبي : ص ٢٧٥ .

[2] انظر : الإنصاف في بيان سبب الاختلاف ، للدهلوي طبعة بومباى ١٣٠٣ ، الجزء الرابع ، ص ٢٤٧ وما بعدها .

(هذه العادات تتعارض مع ماروى ابن عمر عنه " صلى الله عليه وسلم " ، من أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه فقضت عائشة عليه بأنه وهم بأخذ الحديث على وجه ، مرّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على يهودية يبكى عليها أهلها فقال : انهم يبكون عليها فإنها تعذب في قبرها فظن أن العذاب سبب للبكاء وظن الحكم عامٌ على كل ميت) .

الخاصة بأنها دائماً تنبع من " النسيب " فإن أشعار المراثى تتجرد من الدافع الملائم الذى يدل على ظهورها ، والذى لا غنى عنه فى حد ذاته بالنسبة لفن الشعر الذاتى .

ويعتبر شعر " أبى ذؤيب الهذلى " مثالا لذلك ونموذجا ، فقد ترك الشاعر صلب مرثيته وأفرغ محتواها عن طريق شرح عملية الدفن ووصفها وعادات البكاء وغير ذلك مما يخرج عن القصد أو الهدف الأصلى للمرثية :

أعاذِلَ إنَّ الرُّزء مِثْلُ ابْن مالكٍ
زُهَيْر وأمثالُ ابْنِ نَضْلَة واقِدِ

ومِثْلُ السَّدوسِيَّيْن سَادَا وذَبْذَبَا
رِجالُ الحجازِ من مَسُودٍ وسَائِدِ

أقَبَّا الكُشوحِ أبْيضانِ كِلاهُما
كَعالِيَةِ الخطِّي وارِى الأزائِدِ

أعاذِلَ أبْقى لِلمَلامَةِ حَظَّها
إذَا راعَ عَنِّى بالجلِيَّةِ عائِدِ

وقالـــوا تَرَكْنـــاهُ تُزَلْـزَل نَفْسَـهُ

وقـــد أَسْنَدُونـــي أوكَذا غَيْرَ سانِـــدِ

وقـــامَ بَناتـــي بالنِّعـــال حَواسراً

فألْصقْـــنَ وَقْـعَ السبتِ تَحْتَ القَلائِـدِ

يَـــوَدُّونَ أن يُفْدُونَنـــي بنفوسِهـــم

ومَثْنـــى الأَوَاقِـي والقِيـانِ النّواهِـــدِ

وقـــد أَرْسَلـــوا فُرّاطهُـــم فَتَأَثّلوا

قَلِيبـــاً سَفاهـــاً كالإمـــاءِ القَواعِـــدِ

مُطَأْطَـــأةٌ لـــم يُنبطوهـــا وإنّمـــا

لِيَرْضَـــى بهـــا فُرّاطُهـــا أُمَّ واحِـــدِ

قَضوا ماقضوا مِنْ رَمهَا ثم أقْبَلـــوا

إِلَي بِطـــاء الَمشْـيِ غَيْرَ السَّواعِـــدِ

يقولـون لّمـا حُشَّتِ البِئْـرُ أوْرِدوا

فَلَيْسْ بهـــا أدْنَى ذِفافٍ لِـــوارِدِ

فكنـــتُ ذَنـــوبَ البِئْـــرِ لما تَبَسَّلَتْ

وسُرْبِلْـــتُ أكْفانـي ووسدْتُ سَاعِـدِ

هُنالِكَ لا إتلافُ مالِـــيَ ضَـــرَّني

و لا وارِثـــي إن ثُمـرَ الَمـالُ حامِـدِ[1]

أما بالنسبة للرفض الواضح للنسيب بصفته مقدمة لأشعار الرثاء فإننى أحب أن أشير إلى شعر " عبيد الله بن قيس الرقيات " هذا الشعر قيل بخصوص الذين قتلوا من أتباع قبيلته فى معركة " الحرة " ، وكان الذى كتب إليه بنعيهم ابن عم له ، يقال له " يزيد " ، فقال فيهم يرثيهم :

ذَهَبَ الصبـــا وتَرَكْـتُ غَيَّتَيْـــه

وَ رأى الغَوانِـــي شَيْـبَ لِمَّتَيَـــهْ

و هَجرْنَنِـــي وهَجَرْتُهُــنَّ وقَـدْ

غَنَيَـــتْ كَرائِمُهـا يَطُفْـنَ بِيَــهْ

إذْ لِمَّتِـــى سَـوْدَاءُ لَيْسَ بهَـــا

وَضَـــحٌ و لَم أُفْجَـعْ بإخْوَتِيَـــهْ

الَحامِليـــنَ لِـــــوَاءَ قَوْمِهـــمُ

والذَّائِديـــنَ وَراءَ عَوْرَتِيَـــهْ

---

[1] شرح أشعار الهذليين للسكرى ، جـ ١ ص ١٨٩ وما بعدها .

انظر : السيرة النبوية لابن هشام ، الجزء الخامس ، ص ١٠٢٢

(لاحظ ابتداء مرثية الحسن فى " الرسول " وابن مقبل فى " عثمان ") .

إنَّ الحَــــــوادِثَ بالمدينــــــةِ قَــدْ
أوْجَعْتَنِــــــي وقَرَ عْنَ مَرْوَتِيَــــــهْ[1]

وليس من عادة الشعراء أن يقدموا نسيبًا قبل الرثاء كما يصنعون فى المديح والهجاء . قال ابن الكلبى وكان علامة : لاأعرف مرثية فى أولها نسيب إلا قصيدة " دريد بن الصمة " :

أَرَثَّ جَديــــدَ الحَبْــــلِ من أُمِّ مَعْبَــدِ
بعاقبــــةٍ وأخلفَـــتْ كُلَّ مَوْعِـــــدِ

إن المتعارف عند أهل اللغة أنه ليس للعرب فى الجاهلية مرثية أولها تشبيب إلا قصيدة دريد ، وأنا أقول إنه الواجب فى الجاهلية و الإسلام و إلى وقتنا هذا ومن بعده ، لأن الآخذ فى الرثاء يجب أن يكون مشغولاً عن النسيب بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة ، و إنما تغزل دريد بعد قتل أخيه بسنة وحين أخذ بثأره وأدرك غايته ، وربما قال الشاعر فى مقدمة الرثاء تركت كذا وكبرت عن كذا وقد شغلت عن كذا وهو فى ذلك كله يتغزل ويصف أحوال النساء . وكان الكميت ركاباً لهذه الطريقة فى أكثر

---

[1] ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ، بتحقيق د . محمد يوسف نجم
طبعة بيروت ، ١٣٧٨ / ١٩٥٨ م ، قصيدة رقم ٤٠ : ص ٩٧ وما بعدها .
وانظر : جمهرة أشعار العرب ، ص ١١٧ .

شعره ، فأما ابن مقبل فمن حفاء أعرابيته رثاء " عثمان بن عفان " بقصيدة حسنة أتى فيها على كل ما فى النفس ، ثم تخلف فقال :

فـــدَعْ ذا ولكن علّقت حَبْل عَاشِـــق
لإحْدَى شِعَاب الحين والقتل أَرْنَـــبُ

و لم تُنْسِنِى قَتْلى قُريشٍ ، ظَعائِنَـــاً
تَحمَّلْـــنَ حتى كادَت الشَّمس تَغْـــرِبُ

يَطُفْـــنَ بغرّيد يُعَلّلُ ذَا الصبَـــــا
إِذَا رامَ أركوبَ الغوايـــــة أركَبُ

مِنَ الِهيـــفِ ميـــدان تَرى نطفاتهَـــا
بمَهْلِكَةٍ أَخْرَاصُهُـــــنَّ تُذَبْـــذِبُ

والنسيب فى أول القصيدة على مذهب دريد خير مما ختم به هذا الجلف على تقدمه فى الصناعة إلا أن تكون الرواية ظغائن بالرفع[1] .

---

[1] العمدة لابن رشيق جـ ٢ ص ١٥١ و ما بعدها .

تعتبر أشعار المراثى من الموضوعات المفضلة للحفظ والرواية فى الأدب العربى ، فقد شجع الأمويون بحماسة كبيرة حفظ الشعر العربى القديم وبخاصة المراثى[1] . وكان الدافع عندهم لهذا العمل أنه من خلال هذه الأشعار تظل المميزات النادرة للأحداد محفوظة ومدونة حتى لا تضيع مثلما حدث فى كثير من الأشعار القديمة .

وأذكر هنا واحداً من الأدباء الذين قاموا بعملية التدوين وجمع أخبار الشعراء وشعرهم وهو " محمد بن العباس اليزيدى " معلم الخليفة المقتدر . وقد كان حفيداً للشاعر المشهور " أبى محمد يحى " الذى عاش فى عصرى هارون الرشيد وابنه المامون . وهو بالتالى يتبع على ذلك عائلة الشاعر " ذى الرمة "[2] . ولمحمد بن العباس اليزيدى " مؤلفات كثيرة شتى فى أخبار الشعراء والأدباء ، وكتب أخرى تتضمن أخباراً عن الملك العربى

---

[1] انظر المحاسن والمساوىء : لابراهيم بن محمد البيهقى ، طبعة بيروت ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م ، ص ٣٤٦ .

(... كانت بنو أمية لا تقبل الراوية إلا أن يكون راوية للمراثى ، قيل : ولما ذلك؟ قيل لأنها تدل على مكارم الأخلاق) .

وراجع البيان والتبين للجاحظ ، الجزء الثالث ص ٣٦ .

[2] انظر تاريخ الخلفاء ، للسيوطى (القاهرة ١٣٠٥) ، ص ١٢٨ .

القديم وحتى عصر الخليفة المأمون . وفى جمعه لأخبار الشعراء يعتبر مصدراً خصباً لمؤلف الأغانى " أبى فرج الأصفهانى " وكذلك لأبى عبيد الله المرزبانى فى كتابه (الموشح) الذى يعتبر من أغزر ما جمع عن الشعر والشعراء . وهو يعد أول راوية من المعروفين بالنسبة لليزيدى . وهو غالباً الذى يعزى إليه ذكر مناسبة شعر المراثى وذكر مقدماتها الخاصة بموت هؤلاء الأبطال فى المناسبات المذكورة التى أخذت من عمله الخاص فى شعر المراثى[1] .

إن اظهار عدم الجزع يعتبر من متطلبات هذا الشعر وكذلك رفض العزاء خاصة فى شعر " عنترة العبسى[2] " مع وجود دعوة لنبذ الحياة وطلب

---

[1] راجع : آمالى المرتضى ، ص ٣٥٥ ، ص ٤٣٦
وانظر : غرر الفوائد : ص ٢٠٢
(وأخبرنا المرزبانى قال أخبرنا محمد بن العباس اليزيدى ، أخبرنا عبيد الله المرزبانى ، قال حدثنى محمد ...)
وراجع : خزانة الأدب للبغدادى ، الجزء الثالث ص ٦٥٥
(... وهى من القصائد الجياد فى المراثى وقد جمعها محمد بن العباس اليزيدى عن ابن حبيب وهى عندى بخط محمد ابن أسد بن على القارىء وتأريخ خطه سنة ثمان وستين وثلثمائة) .

[2] انظر : السيرة النبوية لابن هشام ٦٩٩ ، وأسد الغابة الجزء الثانى ص ٢٩٨
(كل نادبة (نائحة) . كاذبة ...) ، (زوجة سعد بن معاذ والنياحة) .

الموت فى شعر من جاء بعد ذلك مرتبطاً بعملية الندب القديمة[1] . أما عن بكاء تلك المرأة التى أقسمت معاهدة نفسها بألا تفرح بعد ذلك و لاتذوق النوم ، ثم فعلت عكس ذلك فذكّرها " على ابن أبى طالب " بالآية الكريمة (ياأيُّها الذين آمنوا لِمَ تَقُولون ما لاتَفْعَلون كَبُرَ مَقْتاً عنْد الله أن تَقُولوا ما لا تَفْعَلُون)[2] ، فإن مثل هذه الحكايات كانت قد وجهت أساساً ضد عملية النياحة من قبل الإسلام ولكن بدون جدوى أو نجاح[3] .

ومثل هذا كثير مما يدل على هذه النمطية التى فرضت نفسها فى المناحات أو حتى فى شعر المراثى فقد ظلت سائدة لفترة طويلة دون التأكد من مطابقة ذلك لحال المرثى . من ذلك مارواه " القالى " فى أماليه : (حدثنا أبو بكر " بن دريد " قال أخبرنا عبد الرحمن وأبو حاتم والأشنادانى والرياشّى قالوا كلهم سمعنا الأصمعى يقول : كنت بالبادية فرأيت امرأة عند قبر تبكى وتقول :

[1] راجع : زهر الآداب : الجزء الثالث ص ٢٤٥ (أنكر على من تعلل بالأسى) .

[2] سورة الصف ، آية ٢، ٣ .

[3] انظر : أسد الغابة : الجزء الخامس ص ٤٩٨ .

فَمَــنْ للسّــؤال ومــن للنَّــــوال

ومـــن لِلْمَقـــال ومن لِلْخُطــبْ

ومن للحُماه ومــن للكُمــــــاة

إذا ما الُحمـــاةُ جَثَوْا للرَّكـــبْ

إذَا قِيـــلَ مـــاتَ أبـو مَـــالِك

فَتَى المَكْرُمَـــاتِ قَرِيعُ العَـــرَبْ

فقــد مــات عِزُّبنـــــى آدم

وقــد ظَهَرَ النُّكْدُ بعد الطَّـــربْ

قال فملت إليها فقلت من هذا الذى مات هؤلاء الخلق كلها بموته فقالت: أما تعرفه ؟ فقلت : اللهم لا فأقبلت و دمعتها تنحدر فإذا هى مقـاء برشاء ثرماء ، فقالت : فديتك هذا (أبو مالك الحجام ختن أبـى منصور الحائك فقلت : عليك لعنـــة ا لله ، وا لله ما ظننت إلا وأنــه ســيد مـــن

سادات العرب)[1].

ونذكر أيضا ما عرف عن " ليلى الأخيلية " وسؤال معاوية لها عما إذا كان " توبة " رجلاً مشيناً على عكس ما ذكرته الأخيلية فـي شعرها . وكذلك ماحدث مع الخليفة (مروان) حين سألها عما إذا كان توبة بن الحمير نفسه ليس إلا سارق جمال ، وقيل إنها اعتبرت ذلك إهانة كبيرة لها [2] .

---

(1) الأمالى للقالى جـ ١ ص ٦٣ .

(2) أنظر : زهر الآداب للحصرى ، الجزء الثالث ص ٢٤٩ وما بعدها .

(٢)

أفكار عن أحد موضوعات الشعــر العربـى

" الخمر والموت فى الشعر العربى "

" بيتر هاين "

Peter Heine , Munster

مقالة نشرت بمجلة عالم الشرق ، بألمانيا

الغربية ، العدد ١٣ لسنة ١٩٨٢ م ٠

(جوتنجن)

هناك فرق واضح بين القصيدة والمقطعة فـالقصيدة (المعلقـة) تحتـوى علـى أحزاء من مديح وفخـر ونسـيب ووصـف ومـوت وخمـر وأغـراض شـعرية أخرى ، نجح الشاعر الجاهلى فى تقديمها مجتمعه مـن خـلال قـالب شـعرى فريد .

وبرغم ذلـك فإننـا نشـعر بنقـص إذا نظرنـا إلى هـذه القصيـدة فـى تاريخهـا الطويل من ناحية التطور والحركة . فبمرور الوقت تطورت الأغـراض فـى هذه القصيدة حتى أخذت كـل منهـا شـكلاً قائمـاً بذاتـه . وبـدأ الشـعراء يتخصصـون فـى موضوعـات بعينهـا ، ومـن هـذه الموضوعـات أخـذت الخمريات أيضاً شكلها المستقل[1] .

وهذا مما يدعو إلى الدهشة ، ذلك أن الخمر بالنسبة للمسلمين محرمة، كما حاء فى القرآن :

(ياأَيُّها الذين آمَنُوا إنَّمَا الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأَنْصَابُ والأَزْلاَمُ رِجْسٌ مـــن

---

[1] Zur Qaside S . Encyclopaedia Of Islam , 4 , (Leiden 1974) 713 F .

عَمَلِ الشيْطَانِ فاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ)[1] .

وكان المفروض أن يكون هذا التحذير شاملاً للخمر وقول الشعر فيها ، ولكن هناك عوامل تسببت فى عدم انطباق الآية على الشعر . وأحد هذه العوامل هو أنه تحت حكم الدولة العربية الإسلامية الممتدة الأطراف ، ظهرت اتجاهات معارضة تظهر عدم التزامها بالتعاليم الإسلامية ، مثل سكان الكوفة . فقد كان لهم نشاط فى المجال السياسى والدينى والاقتصادى والاجتماعى بعيداً جداً عن الإسلام ، مما دعا " بن شيخ " أن يعتقد بأن لهم حضارة مضادة [2] .

وفى الحقيقة إن هذا شىء يدعو إلى الدهشة ، فقد وجدت شخصيات أيام الدولة الأموية كان يطلق عليها لقب " زنديق " ومن هؤلاء شعراء من الكوفة ، وفى أواخر العصر الأموى وأوائل العصر

---

[1] سورة المائدة : آية ٩٠ .

[2] انظر : الشعر العربى : بن شيخ ، باريس ١٩٧٥ م بالفرنسية .

وانظر :

J.E . Bencheikh , Khamriyya in :
Encyclopaedia Of Islam , IV 998 - 1009 ,
hr :1003 .

العباسى نسبت الزندقة إلى عدد لا يقل عن نصفهم .

ومن الصعب الحكم بأن التهم التى وجهت إلى هؤلاء الشعراء صحيحة وأنهم كانوا حقيقة من أنصار ديانة المجوس . وكانت الملاحقات فى الاتهام بالزندقة فى عصر العباسيين - حيث تدل على ذلك الأخبار التى أصبحت أكثر ثقة - أنها كانت تنسب إلى الخروج على التعاليم الإسلامية أو جزء منها .وكان تأليف الخمريات والتأكيد على الزهد ، لم يفد الشعراء فى الإفلات من العقوبة ، حتى إن ترك بعض الشعراء للصلاة كان أحياناً يؤدى إلى الشك فى أمر هؤلاء الشعراء لاتهامهم فيما بعد بالزندقة . ورغم أن الزندقة كان يعاقب عليها فى ذلك الوقت إلا أنها كانت عند بعض الخلفاء شيئاً مستحباً ، أمثال الخليفة " الوليد بن يزيد " فقد دعا إلى بلاط الخلافة فى دمشق بعض الشعراء ، وأجزل لهم العطاء ، إلا أن ذلك نفسه كان سبباً فى خلعه وقتله[1].

وفى الحقيقة إن كل هجوم أهل الزندقة على الإسلام ، وبخاصة من شعراء الكوفة ، لم يكن ذا أثر فعّال . فلم تكن قوة هؤلاء النقاد العقلية ،

---

[1] انظر : الأغانى : أبو الفرج الأصفهانى ، بيروت ١٩٥٧ م ، ص ٢٩٣ ، جـ ٢٠ .

وكل نشاطهم الحضارى بدرجـة كبيرة لكـى تشـكل خطـراً علـى الكيـان الإسلامى . فإن تصوراتهم التى كان ينبنـى عليهـا موقفهـم المعـارض ـ لا نعرف مدى هذه التصورات ـ لم تكن جذابة إلى الحدّ الذى يجعل لها صـدى تتركه فى نفوس الناس . وهكذا بقيت هذه الحركة المعارضة ضعيفـة ، و لم يبق منها إلا أبيات قليلة هى التى وردت فى التراث .

وإذا انتقلنـا إلى موضـوع الخمريـات ، فإنهـا وصلـت إلى اسـتقلالها وذروتهـا علـى يـد الشـاعر العربـى " أبـى الهنـدى الريـاحى " (٧٥٠ م) والـذى عـاش فـى خراسـان ، و لم يؤلـف الإ فـى الخمـر . ولقـد وصلـت الخمريات إلى القمة فى عصر " أبى نواس " فقد طـور لغـة الشـعر الخمـرى فى موضوعاته وصوره و أشكاله إلى أبعد مدى فى الشـعر العربـى ، ولكـن من تابعه والذين جاءوا بعده لم يصلوا إلى ما وصل إليـه " أبـو نـواس " فـى الخمريات لأنهم نظموا فيهـا لكونهـا إحـدى أغـراض الشـعر العربـى ، و لم يصل إليها مثل " أبى نواس " إلا " ابن المعتز " و " كشـاجم " الـذى كـان يعمل طباخاً فى بلاط سيف الدولة .

ولأسباب مختلفة ، يبدو أن موضوع الخمـــر والمـــوت مناسبان .

فمنذ العصر الجاهلى كان صب الخمرة على القبر يعنى الحياة للشاعر العربى القديم ، وأغلب الظن أنها كانت ضمن الطقوس الجنائزية التى يحتفى فيها بتحية النديم المفارق ، الذى خلت مجالس الطرب والشراب منه ، إلى جانب ما فى الصورة من وفاء وتقدير . ومما يؤيد قولنا ما جاء عن الأعشى وخير ندمانه بعد وفاته. إذا كان الأعشى يعشق الخمر . وكان سخياً كريماً لا يبخل على صحبه ورفاقه من الفتيان فيجتمعون إليه فى منزله يأكلون ويشربون الخمر . وقد بلغ من وفائهم له بعد موته أنهم كانوا ينادمون قبره فيسقونه الخمر ميتاً ، كما كان يسقيهم الخمر إياها حياً . أما طريقة المنادمة فهى جلوسهم حول قبره يشربون الخمر ، وقد جعلوا قبره بمجلس رجل منهم فإذا جاء دوره صبوا فوقه الكأس ولهذا كان قبره رطباً دائماً[1].

وربما يبرز لنا السبب الذى دفع بالأعشى نفسه إلى أن يصر على معاشرة الخمر بعد موته فيقول :

---

[1] انظر : مقدمة ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس) ص ٤ الطبعة العربية .

إذا متّ فادْفني إلى ظِلِّ كَرْمَـــــةٍ

تروىّ رُفَاتِى فى المماتِ عُروقَهـــــا

ولاتَدْفنّنى بالْفَـــــــــلاةِ فإنّنى

أخَافُ إذَا مامتُّ ألاّأذُوقَهـــــــــا

وفى اعتقادنا أن هذا الوفاء النادر والارتباط القوى المتمثل فى حوار الخمر وصبّها على القبر - رغم ندرتها فى هذا الوقت ـ يعكس تلك العلاقة الوطيدة بين الخمر والموت . ويؤكد ما ذهبنا إليه أن هناك ارتباطاً عقائدياً يحمل شعراء هذه الفترة على التقيد بهذا النمط التصويرى فى قصائدهم من جانب ، وتكراره عند أغلب من رثى الخمر والندمان من جانب آخر . من مثل ذلك ما ذكره " قس بن ساعدة الإيادى " فى رثائه لنديميه بعد أن صب الخمر على قبريهما:

خليلّـــــى هبا طَالما قَدْ رَقدْتُمَـــــــا

أجِدّكُمَـــــا لاتَقْضِيَان كَراكمَـــــا

أَلَمْ تَعْلَما أنّى بِسَمْعَان مُفْــــــرَد

ومَالِى فِيهَا مِنْ خَلِيلٍ سِوَاكُمَــــــا

أُقِيم على قَبْرَيْكُما لَسْت بارحــــاً

طــــوال اللَّيالى أَوْ يجيب صَداكُمَا

أصبُّ على قَبْرَيكُما من مُدامـــــةٍ

فإنْ لم تَذُوقَاهَا تبلّ ثَراكُمــــــا

وابْكيمكَمَا حتّى الممات وما الــــذى

يــــردّ على ذِى عولة ان بكاكُــمَا [1]

وهناك أبيات تعزى إلى أن قائلها شاعر قضى أكثر حياته فى الجاهلية . كان ضمن إخوه من بنى كنانة يسبئون الخمر من الشام ، وينتجعونها ويجتمعون عليها ، فمات أحدهم فدفنوه ، وكانوا يجتمعون حــــول قبره

---

[1] شرح ديوان الحماسة : المرزوقى ، قسم ٢ / ٨٧٥ .

يشربون ويصبون قدحهعلىالقبر فقال أحدهم :

لاتُصـــرِّد هَامَـــهُ مـــن شُرْبِهـــا

اسْقِـــهِ الخَمْـــر وإنْ كَانَ قُبِـــرْ

اسْـقِ أوْصَـالاً وهـامًّاً وصَـــدًى

ناشِـعًّاً يَنْشَـغُ مِثْـلَ المُنْهَمِـــرْ

كَانَ حَيّاً فَهـــوى فيمَن هَـــوى

كلّ عُـــود ذو فُنـــون يَنْكَسِرْ[1]

ومما يدعم قولنا فى هذاه العلاقة التى استمرت فترة طويلة بنفس الاعتقاد الذى كانت عليه عند القدماء الجاهليين أن بعض الشعراء مثل " الأخطل"

---

[1] الوزراء والكتاب : لأبى عبد الله بن عبدوس الجهشيارى ص ١٧٢ .
ط . البابى الحلبى ط . أولى ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م .
بتحقيق : مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى .

استطاعوا أن يصفوا الخمر بانها تنقذ من الموت[1] . وعلى الرغم مـن البعـد الزمنى إلا ان هذه الصورة تظهر مقدار التأثير البـالغ للشعراء القدامى . وكذلك مدى التعمق فى الصورة الشعرية . وهذه الصلة بين الخمر والموت ، أو الفرح والحزن تقوم أساساً على التصور الذى يوجد فى الحيـاة اليوميـة للعرب فى هذه الأوقات ولا زال موجوداً حتى الآن . قـال "الشـاعر إيليـا أبو ماضى " من قصيدة بعنوان (هاتها) :

هاتِهَـا فـى القـدحِ ∴ نسمـةً فـى شَبَـحِ

هاتِهَـا فالنَّفْـسُ فـى ∴ حَاجـةٍ للفَـرَحِ

واسْقِينهَـا كَوْثَـراً ∴ وعلـىَّ اقْتَـرحِ

إنْ تَكُنْ قـد حُرِّمَـتْ ∴ فعلـى المُسْتَقْبِـحِ[2]

إن شـعر الخـمر المـرتبط بالمـوت كان موجوداً فى العصر

---

[1] انظر : ارشاد الأريب إلى معرفه الأديب : ط . مرجليوث لندن ١٩٢٦ م ، المجلد السادس ، ص ١٠٦ وما بعدها .

[2] ديوان أبى ماضى : ص ٢٤٢ دار العودة ، بيروت .

الإسلامى ، ولا يفهم منه أنه لمدح الخمر أورثائها فقط ، مثلما ورد فى شعر " أبى محجن الثقفى " :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْـــرَ يَعْثُرُ بالفَتَـــــى

ولا يَمْلِكُ الإنســـانُ صَرْف المَقَــادِرِ

صبرتُ و لم أَجْزَعْ وقَدْ مَاتَ إخْوَتِـــى

ولستُ عن الصَّهْبَـاءِ يوماً بِصَابِـــــرِ

وَمَاهَا أميـــرُ المؤمنيـــنَ بِحَتْفِهَـــا

فَشُرَّابُهَـــا يَبْكُون حَوْلَ المَعَاصِـــــرِ[1]

فإذا كانت الأبيات تبين إيمان الشاعر الكامل تجاه الواقع الذى فر عليه ، ولكنه لا يملك شيئاً إزاءه ، بعد أن أصبحت معاصر الخمر قبوراً مما جعل عشاقها يأتون إليها ليبكوا أطلال محبوبتهم دون جدوى .

---

[1] الوحشيات لأبى تمام : بتحقيق / عبد العزيز الميمنى ، ص ١٩٢
دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م .

كما تقابلنا صورة أخرى عند عدة من الشعراء الكوفيين ، كبكر بن خارجه الذى ذكر له شعر يطلب فيه من أصدقائه أن يدهنوا جسده بعد موته بتربة الكرم ، وأن يكون قبره بجانب زقاق الخمر :

غَسِّلُونــي إنْ متُّ فى مَــاءِ كَــرْمِ
إنّ رُوحى تُحيى بمَـــاءِ الكُـــروم

حَنِّطُونى بتِرْبها ثُمَّ رُشُّــــوا
كَفَنِـي من رَحيقِهَا المَختُّــوم

وادْفِنُونـي بحانَــةٍ عنــد دَنٍّ
بفَنــا عَسْكَــرِ الدِّنَــانِ مُقِيــم[1]

فإذا أخذنا فى الاعتبار أن مراسم الدفن الإسلامى وغسل الميت من الأشياء المقدسة التى تحاط بهالة من الاحترام ، فيمكننا أن نتصور مــدى

[1] حلبة الكميت : شمس الدين محمد بن الحسن النواجى ، ص ٩٦

Nawadji , Kitab Halbat al -Kumait ,
(Kairo 1299 H .) S . 96 .

خروج هذا الشاعر على التعاليم الإسلامية إلى حد الفحش فى القول. ونحن لا نعلم ظروف هذا الشاعر " بكر بن خارجة " إلا ما ذكره كتاب الأغانى وكذلك " أبو الهندى الرياحى " المقيم بفارس[1] .

وله فى هذا المقام قوله :

مُقَدَّمـــة قَــزًّا كــأنّ رقابهـــا
رقابُ بنات الماءِ أُفرِغن بالرَّعْـــدِ

حَلَتها الجوالى حين طاب مِزَاجهـــا
وطَيَّبْنَهــا بالْبَـــانِ والعَنبـــرِ الوردِ

تمجُّ سلافـــاً من قواريـــرَ صُفِّقَـــتْ
وطاسات صُفرٍ كلّها حَسَنُ القَـــدِّ

---

[1] انظر : الأغانى : أبو الفرج الأصفهانى ، الجزء ٢٠ / ٢١٩ .

كَمَيتاً ثَوَت فى الدنِّ تسعين حجـــــةً

مشعشعةً فى شُربها وَاجِبُ الحَـــــدِّ

عُقارَ إذا ماذَاقها الشيخ أرعشَـــــتْ

مفاصلَـــه وازداد وَجْداً إلى وجـــدِ

ويَبْكى على مافَاته من شَبابــــــه

بكاءَ أسيرٍ فى الصِّفادِ وفى القِـــــدِّ

تضمَّنَهـــا زِقٌّ أزبُ كأنَّــــــــه

كراسيعُ قطعٌ من جُهينَـة أو نَهـــــدِ

إذا أنفذوا مافيه جاءُوا بمثلــــــــه

غطارفــةٌ أهلُ السّماحــــة والمجـــدِ

فَيوْمَـــان يومُ للأميـــــــــر أزُوره

ويومٌ لقَرْع الصّنـج والـرّاحِ والنّـرْدِ[1]

إن السبب فى نزوع " أبى الهندى " إلى الخمريات وانغماسه الشـديد فيها ، رحيله إلى بلاد الفرس الذين كانت لهم حضارة واسعة ، فأراد أن يجاريهم ، ويسير على سنتهم فى نعت الخمر ووصفها ، وحتى فى ترديده لفكره من سبقه كأبى محجن ، وبكر ابن خارجة ، فإنه يطور الصورة التى ينقلها :

اجْعَلُـــوا إن مِتُّ يومـــاً كفنِـــى

ورق الكـــرمِ وقَبْـــرِى مَعْصَـــرَهْ

وادْفِنونِى وادْفِنوا الـــــرَّاح مَعِـــى

واجْعَلُـــوا الأَقْـدَاح حَوْلَ المَقْبَـــرهْ

---

[1] طبقات الشعراء : ابن المعتز العباسى ص ١٣٩ .

إنِّنِــــي أَرْجُــــو مِن ا لله غـــــدًا

بَعْدَ شُربِ الـــــرَّاحِ حسنَ المَغْفِرَهْ[1]

ومثله قول أبي نواس بأكثر خصوصية :

خَلِيلَـــيَّ باللَّــــــهِ لاتَحفِــــرَا

لى القَبْـــــرَ إلاَّ بِقَطَـــــــر بُـلِ

خِلال المعاصِرِ بَيْـــن الكُـــــرومِ

ولا تُدنِيانِـــي مـــن السُّنبـــــلِ

لَعلِّيَ أَسْمَـــعُ فى حُفْرَتِـــــــي

إذَا عُصِرَتْ ـ ضَـجَّـةَ الأَرْجُـــلِ[2]

إن أبيات أبي " الهندى " و " الثقفى " وابن خـــارجة " ، لتوضح بأن

---

[1] طبقات الشعراء : ابن المعتز ص ٣٨ .

[2] الديوان : ص ١٧ .

الإسلام لم يتمكن من السيطرة الكاملة على بعض الأماكن أيام الأمويين وأوائل العصر العباسى ، ولكنها توضح أيضاً الحرية الأيدلوجية والتسامح لهذه الحضارة الإسلامية ، التى لولاها لما أمكن لهذه الأبيات أن توجد .

أما الخمر التى يتحدث عنها (أبو نواس) فهى الخمر المعتقة التى تبلى الفناء نفسه . إن أبا نواس يصف الخمر ، ليس على أنها دواء فقط بل يجسمها فى صورة شخص يفنى الموت نفسه ويتغلب عليه ، وإن كان أبو نواس بالنسبة للأخطل الشاعر الأموى أكثر واقعية فى خمرياته :

دَعْ ذَا عَدِمتك ، واشْرَبهـا مُعَتَّقـة

صفراء تفصل بين الرُّوح والجَسَد[1]

وأبو نواس ينقل فكرة أبى محجن الثقفى ، و لم يقتصر ذلك على الا قتباس فقط ، وإنما أخذ الصورة وطورها . فإن أبا نواس على علم تام بعقيدة حساب القبر عند المسلمين بعد الوفاة ، ولكنه يريد أن يحتفظ بعقله وحيويته عن طريق الخمر ، ليستعد لهذا الحساب ، وفى هذا خروج شديد

(1) الديوان : ص ٢٩٦ .

على الإسلام . وقد شك كثير من معاصرية ، ومن جاء بعده فيما إذا كـان أبو نواس من المسلمين حقاً ، واتهمه كثير منهم بالزندقة :

ولاحٍ لحانى كَىْ يَجىءَ ببدعـــــةٍ

وتلكَ لَعَمـــرى خطّـةٌ لا أُطِيقُهــــا

لَحانَــــى كى لا أشربَ الرّاحَ ، إنهـا

تُوَرّث وزراً فادحـــاً منْ يَذُوقُهـــــا

فما زادنى اللاّحون إلا لجاجــــــةً

عليها ، لأنّى ما حَييتُ رفيقُهـــــا

هى الشمسُ إلا أنَّ للشمسِ وَقْـــدَةً

وقَهْوَتنـا فـى كل حُسنٍ تفوقُهـــا

فنحنُ وإنْ لم نَسْكنِ الخلد عاجـــلاً

فَما خلْدنـــا فى الدّهر إلا رحيقُهـــا

فيا أيها اللاّحى ا سْقِنــــى ثم غَنِّنـــــــى

فإنّى إلى وَقْتِ الممــــات شَقِيقُهـــــا

" إذا مِتُّ فادْفنِّى إلى جنب كرمـــــــةٍ

تُروِّى عظامى بعد موتى عروقُهـا " [١]

وقد فسر كل هذه التصرفات (إيفالد فاجنر) فى كتابه عـن الشـعر ، بـأن كل ما ينسب إليه من شذوذ فى سلوكه وهجومه على الإسلام ، لم يكـن إلا شعورا غريبا من الشاعر باللذة لمجرد الخروج على الأشياء ، ولذة المسلك المتناقض ، ولذة الهجاء والتهكم والسخرية . ولم يكن فى صميم فكـره أن يعـادى الإســلام كديـن ، وهــذا كلــه يمكــن فهمــه لمــن يقــرا ديــوان الشاعر كاملاً [٢].

[١] الديوان : ص ٩ ط . الغزالى .

[٢] أبو نواس : إيفالد فاجنر

(دراسة أدبية فى الفترة العباسية) ، فيسبادن ، ١٩٦٥ م ، ص ١١٠

E. Wagner , Abu Nuwas . Eine Studie Zur Literatur der fruhen Abbasidenzeit , (wiesbaden 1965), S .110

إن " ابن المعتز العباسى " لم يصل فى خمرياتـه كمـا وصـل إليهـا أبـو نـواس. فأفكار ابن المعتز فى خمرياتـه ذات معـان مختلفـة ومتنوعـة وكـانت الخمر سبيله للنسيان لأ نه كان يحب حباً شـديداً ، وكـان يريـد أن يتناسـى ذلك بشرب الخمر :

إنّـى شُغِلْـتُ بمشغـولٍ وبَـرَّحَ بـى

صُـدُودُ حَاجَاتِه عن وجـه حاجـاتِ

يا لَيْتَه كانَ ذَا مَنْع رُميتُ بـه

كَيلا أُشَـارِكَ منـه فى المواتَـاتِ

وَيْح المُحِبِّين ما أَشْقَى حُدُودهـم

إنّ المُحِبِّـنَ أَحْيـاءٌ كَأَمْـواتِ[1]

وذكر فى أشعار كثيرة له " أن فى الموت راحة " ، وبخاصة تلك التى يقترن

---

[1] انظر : Ibn al -Mutazz Diwan , Hrsg , Van B. Levin (Bibliotheca Islamica 17c) Teil 3 , (Istanbul 1950) S , 48

فيها ذكر الموت بالخمر والشراب[1] .

لقد أصبح واضحاً أن الربط ما بين الخمر والموت في الشعر العربي هو ميل غير إسلامي ، يقوم على معاداة الشريعة الإسلامية . ولكن لابد من أن نفرق بين شعراء يرفضون التعاليم الإسلامية بأكملها مثل : أبي محجن الثقفي ، وبكر بن خارجة وأبي الهندي – حسب تصوري – وبين شعراء لا يغون من خمرياتهم ونقدهم سوى خروج شكلي على بعض التعاليم الإسلامية مثلما رأينا عند أبي نواس .

إن تعليلنا لفكرة الربط بين الخمر والموت قبل الإسلام وبعده يقوم على أساس فكرة أنه نشأ مثلما نشأ من النسيب الألم على فراق المحبوبة ، فقد كان العرب يقبلون على ذلك باهتمام شديد قبل الإسلام وبعده ، وخاصة في قصص الشعراء وشعر العشاق البؤساء ، مثل " جميل بثينة " و" مجنون ليلى " وكل قبيلة بني عذرة الذين كانوا يموتون بسبب الحب . ولكن هذا الشعور المطلق كان مصدر شقائهم ، لأنه يتميز بالتشاؤم والكآبة . ولكن في الخمريات – في ظل الإسلام - كان الشعور

---

[1] انظر : ديوان ابن المعتز ، مج ٣ ص ٤٨ .

ذاتياً محضاً فقد حلت الخمر محل الحبيبة في حياة الشعراء ، إما الخمر أو المحبوبة، وبذلك حدثت استقلالية بين شعر الغزل والخمريات .

ويرجع الفضل فيه إلى حياة الجماعة الإسلامية ، فكلما كان هناك ارتباط شديد في حياة الجماعة بالدين كان وقع الأبيات القليلة للشعراء الماجنين واضحاً .

وقد نشأ بعد ذلك (التصوف) في العصور المتأخرة لينقذ الحضارة الإسلامية من الركود . أما عن الخمريات المذكورة في شعر التصوف ، فإنها كانت محاولة للاقتراب من الجوهر الإلهي بالوصف ، ولكنها كانت تحاول الابتعاد عن الاتجاه الرسمي للإسلام ، وذلك باعتناق الاتجاه الروحي الذي كان يؤمن به شعراء التصوف ويعيشون من أجله .

ومن ذلك على سبيل المثال ما أورده " ابن الفارض " في قصيدته التي يقول فيها :

شَرِبْنَا ، على ذِكْرِ الحبيب ، مُدَامــــةً ،

سكِرْنَا بها ، من قبل أن يُخلْق الكَـــرْمُ

لها البدرُ كأسٌ ، وهى شمسٌ ، يُديرُهـــا

هلالٌ ، وكم يبدو إذا مُزِجَتْ نَجــــمُ

ولولا شَذَاهـــا ما إهْتدَيتُ لِحانِهـــا

ولولا سَناهَـــا ما تصَوّرهـــا الوَهْـــمُ

و لم يُبْقِ منها الدْهْرُ غيَر حُشاشـــــةٍ

كأنّ خَفاها فى صُدور النُّهى ، كَتْـــمُ

فإن ذُكِرَتْ فى الَحىّ أَصْبحَ أهلُـــــــه

نَشاوى ، ولا عارٌ عليهمْ ولا إثْــــــمُ

ومن بينِ أحشاء الدّنـانِ تصاعـــــدتْ

و لم يَبقَ منهـــا ، فى الحقيقةِ إلاّ اســـمُ

وإن خَطَرتْ يوماً على خاطرِ امــرىءٍ

أقامتْ به الأفــراحُ ، وارْتحلَ الهَـــمُّ

ولو نَظَرَ النُّدمـــانُ خَتْــمَ إنائِهـــا

لأسكَرَهُمْ من دونِهـــا ذلكَ الختـــمُ

ولو نَضحوا منها ثَرى قبـــر مَيِّـــتٍ

لعادتْ إليه الــرّوحُ وانْتَعشَ الجسمُ[1]

وقد نظر بعض الأئمة إلى الشعر الصوفى ، فى ذكـره الخــــمر الإلهيـة ، والعشق الإلهى على أنه قمـة الاستهتار . فذكـر الله (الـذى ليـس كمثلـه شىء) ، وتشبيهه بالخمر التى حرمها القرآن يعتبر انحرافا :

---

[1] انظر :

Umar b. al-Farid , Khamrieyya . The Wine Song Of Shaikh " Umar Ibn al - Farid '
With a Translation by A. Sefi .
DSOAS 2 (1921 - 1923) 235 - 248 .

وراجع : ديوان ابن الفارض بتحقيق د . فوزى عطوى ، بيروت ، دار صعب ، ط ثانية ١٩٨٠ م ص ١٧٩ وما بعدها .

يقولــونَ لى : صِفْها ، فأنتَ بوَصْفـها

خبيِّر ، أجَلْ عِندى بأَوْصَافها عِلــــمُ

صفــــاءٌ ولا مــاءٌ ، ولُطْف ولا هَواً

ونـــورٌ ولا نارٌ ، وروحٌ ولا جِسْــمُ

تقَدّمَ كُلَّ الكائنــــــاتِ حديثُها

قديماً ، ولا شكلٌ هناك ولا رَســمُ

وقامت بها الأشيـــاءُ ، ثَمّ لحكْمَــةٍ

بها احْتَجَبت عن كلّ من لا له فَهــمُ

وهامتْ بها روحى ، بحيث تمازَجا ، اتّ

حــاداً ، ولا جِرْمٌ تَخَلّلَــه جِــرمُ

فخَمْـر ولا كَـرْم ، وآدَمُ لــــى أب

وكَــرْم ولا خَمْــــر ، ولى أُمُّها أُمُّ[1]

ولكن التصوف كلل النجاح لأن احتياجـــات كثيـر من المسلمين الذيـن كانوا يتقربون إلى ا لله والذين كانوا ينفـرون مـن جمـود أفكـار الأئمـة فـى تصورهم لله ، جعلتهم أكثر إصغاء لشعراء التصوف و لم يتمكن الأئمة مـن قهر التصوف إلى اليوم ، بل اضطـروا على العكس مـن ذلـك ، إلى قبـول حلول وسط ، والنظر بعين التسامح إلى بعض أفكار المتصوفة التى تتعـارض فى بعض الأحيان مع روح الإسلام .

وهكذا أصبح شعر التصوف الغزير شيئاً محبوباً وجـزءاً لا يتجـزأ مـن الحضارة الإسلامية ، وأصبحت صورة الخمر والموت أيضـاً منتشـرة ــ ذات ذيوع ـ دون أن يتعرض الشعراء من أحلها لإرتكاب الذنب أو الملاحقـة أو العقوبة .

---

[1] المصدر السابق : ص ١٨١ .

خـــــــــاتمة

هنـاك عـدة ملاحظـات ، أعتبرهـا ـ مـن وجهـه نظـرى · المدخـل الأساسى لفهم طبيعة دراسـات المستشـرقين الألمـان · فقـد لاحظـت أثنـاء إعدادى لهذه الترجمات حرص الناقد الألمانى ـ بخاصة ممن يعدون فـى الجيـل المـاضى أمثـال (جولـد تسـيهر) علـى أن يـأتى بشـواهد دراسـته وأمثلـة ملاحظاته مـن مظـان الأدب العربـى القديـم بنصهـا الصريـح منقولـة دونما حذف أو تحريف أو اعتساف بعضها دون الآخر ، كما يحـدث أحيانـا فـى بعض الدراسات الغربية فيقتصر الأديب علـى جـزء منقـول يقضـى حاجتـه دون استكمال لبقية النص المنقول ، ومما يدل عليه ، ويفضى إلى ما لا يفهم أو يعقل فى بعض الأحيان · وغالباً ما يـؤدى هـذا الاكتفـاء إلى نـوع مـن الضعف ينال النص لانقطاع التواصل العام للفكـرة ، التـى أراد الأديـب أن يبرزهـا ، ولا تتضـح إلا باسـتكمال عنـاصر النـص ، ومكونـات الصـورة وأبعادها المتكاملة ·

كـــــما أن بعض مقالات النقـــاد الألـــمان ـ إن لم تكن أغلبها ـ

تقتحم الدراسة دونما تمهيد أو إعداد مسبق للدراسات السابقة فى هذا المجال . قد يكون هيناً فى مجال المقالات والبحوث التى تنشر بالدوريات ، على اعتبار أن مجال الدراسة فيها محدود ، والأفكار مقيدة بمنحى واحد غير أن هناك دراسات مفصلة ومطولة تغلب عليها نفس السمات السالفة الذكر . قد يعتنى أصحابها بذكر نبذة عن موضوع الدراسة وشخصياتها فى آخر البحث دونما حاجة لذلك .

كما ينبغى ان أشير إلى تنوع بعض الدراسات الغربية التى تعنى بالأدب العربى وشخصياته ومناهجه ، وبيان وجهه المشرق لدى الدراسين . فى تطور فكرى مقبول ، ومنهج عقلى سليم .

بيد أن هناك العديد من الدراسات التى تستغل هذه الظاهرة ، وتحاول أن تبث أفكارها المغرضة فى ثنايا هذه الملاحظات ، بتناول ظواهر أدبية وتيارات نقدية فى محاولة إلصاقها بدراسات ومفاهيم دينية عقائدية لا صلة لها بما يدرس ولا علاقة لها بما يقال ، حتى يظن القارىء أن الموضوع المثار يختص بدوافع وجدانية أكثر منها تقويمية تبعث على الاحترام والتقدير .

ومما يحسب أيضاً لهؤلاء المستشرقين أمثال " جولد تسيهر " حرص القدامى منهم على ذكر أمثلة النصوص الشعرية بلغتها التى كتبت بها ، وكأنهم يعلمون حق العلم بما يقال إن الترجمة لا تغنى عن الأصل .

أما المحدثون منهم أمثال " بيتر هاين " فيأتى بكل النماذج الشعرية المأخوذة من الشعر العربى مترجمة ، فتفقد بذلك مصداقيتها ، ووقعها على القارىء أو الدارس لهذا النوع من الأدب . على الرغم من درايتهم التامة بعروض الشعر العربى وموسيقاه ، ومعرفتهم بأهمية ذلك فى عملية التذوق الفنى وتقويم النص .

كما يلاحظ عدم اهتمامهم بفهرسة المصادر والمراجع فى آخر كل دراسة ، فيكتفى بالهوامش وكذلك الخاتمة عند أغلبهم سواء من القدامى أو المحدثين ، ولعل هذا مرجعه إلى أن الهوامش تحتل فى مثل هذه الدراسات مساحة واسعة يتيح فيها الناقد فرصة التعرف على كل جوانب الموضوع المشار إليه لمن يريد التزيد .

وعلى أية حال فإن هذه المحاولات التى حرصت على نقلها إلى العربية ، دونما تدخل برأى أو تفنيد لظاهرة بحرفيتها أو تعقيب بمثال ، إنما

نقلتها بحرفيتها لتنبىء عن صاحبها وتفسح المجال للنقد والتحليل .

ونادراً ما يقع الدارس على محاولات ابتكارية يمكن أن ينظر إليها من وجهه غير مسبوقة ، لكنها تحيط نفسها بمبررات قد تجعل مجال الدراسة مقبولاً وتفتح للنقد آفاقا .

الفهرست

الموت والخمر فى الشعر العربى

رقم الإيداع

٢٦٠٦ / ١٩٩٣

الرقم الدولى

I.S.B.N.

977 - 231 - 014 - 7

النسر الذهبى
للطباعة
يسرى حسن اسماعيل
شارع عبد العزيز - الهدارة ٢ عابدين
ت ٣٩١٠٠٧٥